أستاذ الدعاة وزعيم المصلحين

شيخ الاسلام ابن تيمية

للأستاذ عبد الجليل السيد حسن

... قدره فى السماك عند قوم ، وفى الحضيض عند آخرين . كثر محبوه ومبغضوه ! ... ففى كل صقع معجب به ، وحانق عليه ؛ وفى كل بلدة رافع له إلى رتبة الصحابة الأخيار ، ونازل به إلى أحط دركات الكفار

رمى فى قاع السجن عسى أن يرجع عن رأيه ، فما خضع ولا هان ؛ وأوذى أشد الأذى فما ازداد إلا استمساكا بدعوته ؛ وحورب بكل القوى فما ارتد عن عقيدته ـ خاف الله حتى ما عاد يرهب أحدا ؛ فما بالى بجبار ... وإن كان جبار الغول ؛ وما ركع بظالم ... وإن خضبت يده بالدماء

بلغ فى العلم الذرى ، حتى سبق شيوخه ... وهم شيوخ . فقه الكتاب والسنة حتى ما عاد يرى إماما يقلده فى فقههما ؛ فوضع نفسه ـ بحق ـ موضع الأئمة الأربعة ؛ فكان له مذهب أخذ به فيما بعد . صفى العقيدة والشريعة من كل دخيل ، ورجع بهما إلى صفائهما الأول .. ونقائهما الأوحد .

جاهد الجهادين ـ وأبلى خير بلاء ـ جهاد العلماء الذين علوا بقومهم ؛ وجهاد الفرسان الذين احتربوا بين طعن القنا وخفق البنود . وحارب كأصغر جندى ، وقاد أكبر القواد .

... هذا هو شيخ الاسلام ابن تيمية . وهذه صورته ؛ وصورة الناس إزاءه .

***

ولد ـ تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد ابن تيمية الحرانى ـ يوم الاثنين ١٠ ربيع الأول عام ٦٦١ هجرية (٢٢ يناير عام ١٢٦٣ ميلادية) فى حران قرب دمشق .

وما تم أن هجر أهله حران إلى دمشق (وهو فى السابعة من عمره ، هربا من جور التتار ؛ وكانوا آنئذ بالشام يغيرون على المسلمين)

وقد كان أبوه عالما حنبلى المذهب ؛ فبدأ يتلقى ابنه ـ فى دمشق ـ علوم الدين فاستشعر الصغير لذة العلم ، فاختلف إلى مجالس العلماء ـ وكانت عامرة روادها ـ فى دمشق يلتقف من أفواه ربانيها ؛ وتمدد شيوخه حتى أربوا على المائتين فى علوم الدين والعربية وعلم الكلام .

وكان ـ ابن تيمية ـ عجيب الحفظ لا ينسى ... وقد ذكروا الكثير عن قوة حفظه ، ومما روى فى ذلك عنه وهو ما يزال بعد صبياً ؛ أن شيخا من «حلب» علم به ، فأراد أن يراه ، وكتب له من متون الحديث أحد عشر متنا فلم يزد الصبى على أن نظر فيها مرة ثم أسمعه إياها ... وقبل أن يبلغ العشرين كان قد نال حظا كبيرا من العلم ، وذاعت شهرته حتى قيل أنه ناظر واستدل وهو دون البلوغ ... وعد من أكابر العلماء فى حياة شيوخه .

وليس من العجيب أن يكون الرجل كذلك ؛ ولكن العجيب ألا يكون كذلك ـ فإن الوراثة إن كانت لا تصدق على كل العباقرة فهى هنا أصدق ما يكون ، فرب عبقرى أبواه عاديان ولكننا هنا أمام عبقرى ينحدر من أصلاب عرفت بالعلم ؛ وإن لم تعرف بالعبقرية فيه . . فجده كان عالما معروفا ، وقد ترجم له صاحب «فوات الوفيات» ، وأبوه كان عالما كذلك ... فنحن أمام إنسان خالط العلم دمه ونشأ يقرع سمعه أول ما يقرع .. نقاش فى العلم والدين ؛ ويرى أول ما يرى .. استمساكا بالدين وتمسكا به وقد قدر له أن يربى تربية فيها صلابة لا تضر ، وأخذ فى تنشئته فى كل أطوار تربيته بآداب التصوف .

توفى والده وما يزال فى سن الحادية والعشرين من عمره . فخلف والده وهو فى إبان شبابه فى تدريس الفقه الحنبلى ؛ وفى كل يوم جمعة كان يفسر القرآن للناس من حفظه فينقضى مجلسه فى شرح آية وتزيد !! بلا تحليل فى لفظ أو جرى وراء تأويل ، وكان رجلنا واسع الاطلاع دائم القراءة ، قل أن يدخل فى علم ما ـ فى باب من أبوابه إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب ، ويستدرك أشياء على حذاق أهله . وكان فى التفسير إليه المنتهى ، وفى الحديث لا يلحق ، وفى الفقه لا نظير له ، وفى الملل

لا يدانى ، وفى التاريخ عجب عجاب .

قال ابن دقيق العيد بعد اجتماعه به (كنت أظن أن الله تعالى ما بقى يخلق مثلك) - وكان حر التفكير ، كثير الجدل والمناظرة فى حدود الكتاب والسنة ، وقد كان مناظرا لا يبارى حتى أنه كان يناظر صغيرا ، فيفحم الكبار ، وقد جرت عليه حريته فى القول وصلابته فى الحق وبالا كثيرا .

تنقلاته واضطهاده

فى ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وستمائة ورد سؤال من « حماة » على الشيخ بدمشق[1] يسأل فيه عن صفات الله ، فرد الشيخ بكتاب وكان هذا الكتاب بدء المحن التى سيلاقيها الشيخ. وكانت سانحة انتهزها الشانئون ، فلفقوا بأن الشيخ يقول بالتجسيم ، ورموه بالكفر ، وحرفوا كلمة وحملوه مالا يحتمل ، وسعوا إلى القضاة والفقهاء يستحثونهم لدرء الشر المزعوم ، وأغروا قاضى الحنفية جلال الدين الحنفى باستحضاره ، فأبى الشيخ ورد عليه بأنه ولى الحكم بين الناس ، لا الحكم فى العقائد ، فغضب القاضى ، وأمر بالنداء على بطلان عقيدته ، ولكن والى دمشق حينذاك ، منع المنادى ، وعقد مجلسا للشيخ بحضور الفقهاء والوالى ، فناقش فى عقيدته وبين مراده ، وانفض المجلس ولم ينكر عليه الحضور شيئا .

انقضت المحنة الأولى إذن بسلام . ولكن الشيخ بات ثقيل الوطأة على أصحاب البدع والمتصوفة القائلين بالاتحاد والحلول ، وبالغ فى الرد على فقراء الأحمدية والرفاعية ، وفضح حيلهم وكشف عن خدعهم التى يدعونها خوارق ، كالدخول فى النار ومسك الحيات وغير ذلك[2]

وقيل لشيخنا « إن الشيخ نصر المنبجى ، فى مصر ، اتحادى ، فكتب إليه الشيخ ينكر عليه ذلك ؛ وكان المنبجى ذا أنصار ومعجبين ، يداخل الأمراء وأصحاب الرأى ، فشنع عليه ودس له الدسائس ، وخوف القضاة والأمراء شره وأغرى سعيه .

فقد ورد من القاهرة إلى دمشق مرسوم سلطانى يأمر بسؤال الشيخ عن عقيدته فعقد فى الثامن من رجب سنة خمس وسبعمائة مجلسا حضره القضاة والفقهاء وأعيد المجلس فى الثانى عشر من رجب وحضر المخالفون وتناظروا مع الشيخ ، ونصر الله الشيخ على خصومه ، ولكن خصومه شنعوا عليه بعد ذلك وآذوه فى صحبه ، وعزر القاضى من يلوذ بالشيخ ، وكانت فتنة تداركها الوالى بحزمه ، ولم يكتف خصومه بذلك بل راحوا يدسون عليه من كل طريق : يقنعون أرباب الدولة بأنه خطر على السلطة ، ويثيرون عليه الفقهاء لأنه خطر على الدين ! فاستدعى إلى القاهرة فى ٥ رمضان سنة ٧٠٥ هـ .

وللشيخ فى نصر شأن أى شأن ، وستثار الضجة حوله وستناله الأحداث بأيد غلاظ ، وسيحتوبه السجن فى القاهرة والاسكندرية .

غادر دمشق فى الثانى عشر من رمضان ، ودخل القاهرة فى الثانى والعشرين منه ، ثم انعقد المجلس فى القلعة الحصينة وانتظم فى سمطه من القضاة جمع ، ومن الأكابر قوم ، وجلهم متنمر للشيخ ، إذا تكلم قوطع ، وإذا باحث غولط ، لم ينل حريته فى القول . وكان « الشمس بن عدلان » أحد خصومه ، كان دوره (تمثيل الاتهام) كدور النيابة الآن . وكان رئيس المجلس القاضى المالكى « ابن مخلوف » . فقام ابن عدلان وقال : « إن الشيخ ابن تيمية يقول : إن الله فوق العرش حقيقة وان الله يتكلم بحرف وصوت ، وأنه سبحانه يشار إليه بالإشارة الحسية ؛ وإنى أطلب عقوبته على ذلك . » ثم جلس . فتوجه القاضى ابن مخلوف إلى الشيخ ابن تيمية وقال : « ما تقول يا فقيه » ؟ فنظر ابن تيمية إلى من فى المجلس ، ثم أخذ فى حمد الله والثناء عليه ، فقاطعه القاضى بقوله : « صه .. أجب عما قال الشيخ ، ما جئنا بك هنا لتخطب » ، وأدرك ابن تيمية أن القاضى المالكى هو الحكم والخصم معا ، فغضب الشيخ وانتفخت أوداجه وتهدج صوته ، وصاح فيهم : « كيف يحكم فى وهو خصمى ؟ »

---

١ — تخطىء دائرة المعارف الاسلامية فى قولها ان السؤال ورد عليه فى القاهرة « ... ولما كان فى القاهرة فى ربيع الأول عام ١٦٩٨ أفتى فى مسألة جاءته من حماة » راجع غاية الأمانى ج ٢ ص ١٨١ . الكواكب الدرية ص ١٧٣ .

٢ — وله فى ذلك كتاب « كشف حال الشايخ الأحمدية وأحوالهم الشيطانية » ذكر ذلك ابن شاكر الكتبى فى « فوات الوفيات » .

وانزعج القوم ... فأقيم من ساعته وحبس فى برج من أبراج القلعة ثم نقل إلى الجب وزج معه أخواه ، وقد توسط الأمير سيف الدين سالار فى إخراجه ولكن اشترط عليه شروط ، منها الرجوع عن عقيدته فأبى . واستمر فى سجنه حتى سنة سبع وسبعمائة حين أتى الأمير حسام الدين مهنى بن عيسى ملك العرب إلى مصر وأخرجه. واعتذر له بعض الفقهاء ، وأرد إلى دمشق بخروجه ، واستبقاه الأمير سيف الدين لينتفع الناس بعلمه وفرح قوم لخروجه وكمد آخرون .

مكث الشيخ يعلم الناس ، ومكث أعداؤه يكيدون له ، وخاصة الصوفية ؛ وفى يوم فاض كلام الشيخ فى الصوفية وقرص بكلامه الاتحادية القائلين بوحدة الوجود، ونال فى كلامه من ابن سبعين وابن العربى ؛ فثارت ثائرة المتصوفة ، وانضم إليهم أهل الخوانق والزوايا والربط وأقاموها ثورة على الشيخ ؛ فذهبوا بجمعهم هذا إلى السلطان ، ليشكوا إليه ابن تيمية ، وتجمهروا حول القلعة ، فقفز منهم على القلعة من قفز ... وتسوروا أسوارها ، ومكث تحتها من مكث

اضطرب السلطان ؛ وعلم أنهم يريدون كف ابن تيمية عن شيوخهم ، إن لم يكن يطلبون رأسه ؛ وقد انضم إلى هؤلاء فى الشكوى منه شيوخ الصوفية كابن عطاء الله السكندرى المشهور — الذى كان عدواً للشيخ — . فعقد له مجلس وخير بين مغادرة القاهرة إلى الأسكندرية ، أو السفر إلى دمشق بشروط ، أو الحبس . فاختار الشيخ الحبس .. لكن قوما أغروه بالسفر إلى دمشق ، وبعد أن ركب خيل البريد أرسل خلفه رسول يعتقله ، وينبئه بأن الدولة لا ترضى إلا بالحبس ؛ وقد امتنع القضاة عن الحكم بحبسه ؛ لأنه لم يفعل ما يقتضى ذلك ، فذهب هو بنفسه قائلا : « أنا أذهب إلى الحبس تبعاً لما تقتضيه المصلحة » . فأرسل إلى حبس القضاة .

أخذ الشيخ يعلم «الحابيس» ، ويفقههم حتى صلح أمرهم ، وساروا أحسن من كثير من أهل الزوايا والربط والخوانق — كما يقول صاحب الكواكب الدرية (ص ١٨١) .

وكان الشيخ يزار ويستفتى ويتردد عليه ، فضاق من ذلك أعداؤه وسألوا نقله إلى الإسكندرية ، فنقل . وحبس هناك .

وفى سنة تسع وسبعمائة دخل السلطان الناصر مصر بعد خروجه من الكرك وقدومه إلى دمشق ، وتوجهه منها إلى مصر ؛ فبادر الناصر باخراج الشيخ وذهب به إلى القاهرة (وأصلح بينه وبين الفقهاء) وقد أكرمه الناصر ورعى مكانته وبجل علمه؛ وقد مكن الله للشيخ من أعدائه ، ولكنه عفا عنهم ولما لم يكن كثير المداخلة والتردد الأمراء ، ولم يكن من رجال الدول ، ولا يتبع معهم تلك النواميس والرسوم ، قل اجتماعه بالسلطان ثم انعدم .

سكن الشيخ القاهرة بالقرب من مشهد الحسين ؛ وفرغ للعلم يجيب سائليه ، ويفتى مستفتيه ، ويعظ ويعلم ويدرس فى مدرسة أسسها الناصر .. وقد وجد بعض أعدائه أنهم لن ينالوا بشكايته لدى السلطان شيئا ؛ فتفردوا به .. وضربوه ضرباً موجعا، وذاع النبأ، نبأ إهانته ؛ فسعى إليه الكثير : يبدون له الانتقام، لكنه هداهم ومنعهم من ذلك .

وفى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، توجه الجيش المصرى ، يريد الغزاة فخرج معه الشيخ ، ثم عرج على بيت المقدس ثم إلى دمشق فكان لمجيئه سرور عظيم .

ولم يذهب الحيف والاضطهاد عن الرجل فى دمشق أيضا ؛ ففى سنة ٧١٨هـ أشير عليه بترك الإفتاء فى مسألة الحلف بالطلاق، ومنعه السلطان من ذلك ؛ ولكن الشيخ عاد فأفتى فعوتب ثم سجن بالقلعة سنة ٧٢٠ هـ خمسة أشهر .. ثم أخرجه السلطان .

وفى سنة ٧٢٦ هـ . استأنفت الأيام محاربتها إياه ، وضربته ضربات أخرى هو ومن بقى من أصحابه: فقد سجن هو وصحبه ؛ ثم أخلى سراحهم إلا تابعه ابن قيم الجوزية ؛ وكان موقفاً جديداً من أثر المواقف وأشدها بلاء . امتحن فيها الشيخ فثبت ، وتلك المحنة هى : أن سائلا كان قد سأله عن حكم « شد الرحال ... » فأجابه الشيخ برأيه (وسنعرض له بعد) . فكانت الفتنة ، وحرفت الفتوى ، وطير العلماء أمر كفره ونبأفسقه فى الأقطار العربية كلها ، فترددصدى ذلك فى العالم الاسلامى كله .. فاضطرب